"إذا عالما أو متعلما أو مستمعا"
(حديث شريف)

البحث العلمي: مقوماته ومعوقاته في موريتانيا
(مقاربات في البحث اللغوي والأدبي)

يحي بن أحمد معلوم
أستاذ بجامعة نواكشوط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية وآدابها

1- تقديم تاريخي:
(محاولة للكشف عن بذور الثقافة العربية وأصولها في موريتانيا).

1-1-توصف الأمة التي ننتمي إليها بأنها " أمة قول وسماع". ولابد أن نلاحظ هنا أنه من الانصاف لها أن نقول كذلك إنها "أمة كتابة وقراءة". لكن رغم أننا قرأنا وكتبنا كثيرا إلا أن القول والسماع كانا أعلى ضجيجا وأبلغ صدى من الكتابة والقراءة. كما أن الأمر لايتعلق "بهل أو ماذا نقرأ ونكتب"؟ وإنما في كيف نقرأ ونكتب..؟ وما هي العلاقة بين حد القراءة والكتابة من جهة وبين حد القول والسماع من جهد ثانية؟: أي المعادلة بين المعقول والمنقول في النص وهو ما سنتناوله في إشكالية "مقومات البحث ومعوقاته في موريتانيا".

1-2- تعتبر الحركة المرابطية المؤسس الفعلي للانسجام الفكري في موريتانيا والذي تجسد بفعل المحاظر التي كانت منتشرة- في المدن التاريخية وفي معظم أرجاء الأقاليم الموريتانية وفي جل قبائل الزوايا- وهي معاهد ثانوية وجامعية تهتم بتخصصات العلوم العربية والإسلامية، حيث عرفت هذه المراكز والمحاظر أهم الكتب اللغوية والأدبية والدينية في الوطن العربي والأمة الإسلامية منذ القرن الحادي عشر مثل الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وأمالي القالي والزاهر في الأدب لابن الأنباري، ووفيات الأعيان لابن خلكان وخزانة الأدب للبغدادي والكامل للمبرد وزهر الأداب للحصري وبهجة المجالس لابن عبد البر(1).

1-3- ويمكن أن نتعرف على النصوص التي شكلت مصادر الثقافة الموريتانية في القرن الثاني عشر الهجري من خلال مانكره الشيخ سيد محمد الكنتي من أن أباه: الشيخ سيد المختار الكنتي (- 1224هـ) درس الكتب التالية:

- في النحو: مقدمة ابن آجروم وخلاصة ابن مالك وكافيته وفريدة السيوطي.
- وفي البيان والبديع: التلخيص للقزويني وعقود الجمان للسيوطي.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

- وفي الفقه الإسلامي: مختصر خليل ومنظومة ابن عاصم وجامع الأصول لابن الحاجب وحدود ابن عرفة ورسالة ابن أبي زيد القيرواني.
- في أصول الفقه: الورقات للجويني وجمع الجوامع لابن السبكي وكافية ابن الحاجب وتنقيح الفصول للقرافي.
- في القواعد الفقهية: كتاب المنجوري على قواعد الزقاق.
- في الحديث: الصحاح الستة وجامع الأصول لابن الأثير وجامع السيوطي وشفاء عياض وكشف الغمة للشعراني والترغيب والترهيب للمنذري.
- في التفسير: تفسير الجلالين وتفسير البغوي ولباب التأويل لابن الخازن وتفسير ابن عطية وتفسير النسفي وتفسير البيضاوي(2).

1-4- ونلاحظ من هذه النصوص- الآنفة الذكر- أن اهتمام الموريتانيين كان ينصب في الأساس على العلوم الشرعية وأن الاهتمامات اللغوية والبلاغية فيها لم تكن لذاتها بل لكونها وسائل لاستيعاب النصوص الدينية من قرآن وحديث... غير أن هذه الوسائل والأدوات لم تلبث حتى تحولت إلى علم مستقل يتضمن شواهد النحو والبيان ودراسة اللغة وملكة الإنشاء وتذوق الشعر لدى الموريتانيين.

ولعل طبيعة البيئة البدوية الموريتانية تفسر لنا غياب علوم مثل الهندسة والرياضيات والعلوم الطبيعية والصناعة، لأن الحياة البدوية لاتحتاج إلى هذه العلوم. فيكتفي العالم من الرياضيات بما يقسم به التركات والمواريث على أهل السهام. ويشيع بينهم أن علم الرياضيات "علم شهر". ويبدو أنه كانت لديهم بعض الاهتمامات بالتاريخ والسير والرحلات(3).

1-5- أما المؤلفات والنصوص التي انجزها الموريتانيون في فترة ماقبل الاستقلال فإنها تتمثل - غالبا- في أنظام وشروح تتناول العلوم الشرعية، فنرى العالم الذي يهتم بالتدريس يعمد إلى تأليف الشروح والتعليقات والطرر بقصد استيعاب النصوص وتقديمها لطلابه... في حين أن المدرس عندهم كان ينظم العلوم لتسهيل حفظها لأنه يعتمد على الذاكرة لندرة مواد الكتابة وصعوبة القراءة في أحيان كثيرة خاصة عند من يمارسون التدريس أيلا مع الظروف البدائية للإنارة في ذلك العصر(4).

ومن العلماء الذين عرفوا بإنشاء المنظومات التعليمية: المختار بن بونه البدوي المجلسي وأباه بن محمد الأمين للمتوتي وعبد الله بن الحاج حماه الله الفلاوي... وغيرهم.

1-6- ويبدو أن ثقافة العلماء الموريتانيين منذ ق13هـ قد تشكلت بتراكم المصادر المجلوبة عبر الرحلات إلى المشرق والمغرب، غير أن ثقافتهم تلك قد

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

انطبعت بهويتهم الخاصة والتي كانت تتنزل في إطار الثقافة المغربية والأندلسية، لأن الدعوة إلى الإسلام انطلقت في البداية من القيروان إلى سجلماسة والتي توجهت منها إلى الصحراء، وبعد ذلك استمر التواصل الحضاري والثقافي بين قرطبة والمغرب وبين الصحراء والسودان، فكانت المصادر العلمية والثقافية للموريتانيين في هذه الفترة -غالبا- مغربية وأندلسية معا(5) وتمثل النصوص التالية ذلك بجلاء:

- في علوم النحو واللغة عرفوا ألفية ابن مالك، ونظم ابن آجروم، وكتب ابن حيان، وشرح الشنتمري للشعراء الستة الجاهليين.
- في علوم القرآن: كتب الداني والشاطبي.
- في تفسير القرآن: أحكام القرآن لابن عربي، وتفسير القرطبي، وابن عطية.
- في الفقه: نظم ابن عاشر، ورسالة القيرواني. ورغم أن مختصر خليل كان يمثل المتن الأساس للفقه المالكي فإن مصادر هذا المتن كانت مغربية، أندلسية، حيث ارتكز في عزوه -غالبا- على المازري واللخمي وابن يونس وابن رشد.
- في التاريخ: نظم ابن الخطيب (رقم الحال)، ومقدمة ابن خلدون.
- في العقيدة: مؤلفات السنوسي، وإضاءة الدجنة للمقري(6).

1-7- ولعل المحنة التي تعرض لها العلماء في تمبكتو منذ القرن 16م -إثر معارضتهم لاحتلال الجيش السعدي لبلدهم - كانت تعبر بعنف عن نهاية التحالف بين العالم والحاكم، "لحلت إيديولوجيا القوة وما يرتبط بها من قيم القروسية محل مبدإ الشورى"(7). وبدأ العلماء في الخروج من المدن إلى الأرياف لنشر الثقافة العربية-الإسلامية.

ويبدو أن الرحلات التي قام بها عبد الرحمن السعدي التمبكتي (ت1655م) - صاحب كتاب "تاريخ السودان" كانت أول الرحلات المهمة، ومنذ ذلك التاريخ توالت هجرة الشخصيات والأسر العلمية من المراكز الحضرية إلى الأطراف بعد أن كانت المراكز تستقبل وتستوعب الثقافة وتنتجها. وفي نهاية القرن السابع عشر الميلادي أصبحت مصالح العلماء ترتبط بمصالح العامة في الصحاري والأرياف، فنتج عن تلك الهجرات إلى الأرياف ازدهار الثقافة العربية -الإسلامية خارج المراكز الحضرية، الجنوبية الشرقية: (تنبكتو- ولاته) إلى المراكز الشمالية الغربية: (تشيت- ودان- شنقيط)، وتدرج الازدهار الثقافي في الأرياف من "أزواد" إلى "القبلة"، وحوض نهر صنهاجة، ورافق ذلك انتقال مركز الثقل الاقتصادي والسياسي من موانئ الساحل الصحراوي إلى موانئ الساحل الأطلسي، ولعب العلماء الموريتانيون دورا حاسما في عملية توطين العلم والثقافة، واستقبالهما فأسسوا

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

مدارس متحركة باسم (المحاظر) فكانت بديلا للمدارس المعروفة في الحواضر والتي كانت تحتضنها المساجد(8).

وفي القرن الثالث عشر ازدهرت الثقافة العربية - الإسلامية، وانتعش البحث المرتبط بها. حيث " بلغت هذه الثقافة مداها انتشارا وعطاء. وتمرس هؤلاء البدو الرحل المنعزلون بمختلف فروعها تدريسا وتأليفا وبحثا وتنظيرا واكتملت لهم شخصيتهم الثقافية المستقلة الموحدة في كنف تعرب عام، متعمق ومتماسك"(9). فجعت قبائل الزوايا في أن تنتظم في نسق معرفي متماسك، يضمن التواصل المعرفي والكتب وتبادل الرسائل والفتاوي بين العلماء، كما تشكل الوعي بالانتماء إلى مجتمع واحد من الناحية الثقافية والفكرية وتم ذلك رغم التفكك السياسي والانشطار الوطني إلى إمارات وقبائل وجهات.

1-8- ولعل التيارات المذهبية والفكرية المتصارعة قد انعشت البحث والتفكير بالصراع والتضييع لبعضها دون بعض. ومن أهم تلك التيارات والمذاهب السائدة آنذاك:

- التيار السلفي الذي تزعمه المجيدري (ت: 1203هـ/1789م)، ويتمسك بنصوص الكتاب والسنة في ظواهرها، ويرفض المنطق الأرسطي وعلم الكلام الذين تعتمد عليهما الأشعرية المتوسية.

- مدرسة المعقولات الأشعرية التي حمل لواءها المختار بن بونه الجكني (ت:1220هـ/1804م) وتعتمد على المنطق الأرسطي وعلم الكلام واصول الفقه والنحو والبلاغة.

- التصوف الطرقي، وقد نهض نهضته الكبرى على يد الشيخ سيد المختار الكنتي (1226هـ/1811م)(10).

ورغم انتصار المعقولات الأشعرية في (ق:13هـ) على التيار السلفي فإنها قد توسلت ضمنيا -كحالها منذ الغزالي- إلى شكل من التسامح المشوب بالتوتر مع التصوف الطرقي فتم لهذين التيارين طبع الحياة الثقافية الموريتانية بطابعهما المتميز(11).

1-9- ومنذ القرن (13و14هـ) ظهر كثير من العلماء المدرسين والمؤلفين في حقل الثقافة العربية الإسلامية، ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر: محمذن بن حب الله اليعقوبي (المجيدري): (ت:1203هـ/1787م)، والمختار بن بونه الجكني (ت:1220هـ/1804م)، والشيخ سيد المختار الكنتي (ت:1226هـ/1811م)، وسيد عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي (ت:1233هـ/1818م)، وأحمد بن العاقل الديماني (ت:1244هـ/1827م)، والنابغة

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الفلاوي (ت:1245هـ/1828م)، وابنيجة الكمليلي (ت:1272هـ/1856م)، وحبيب الله بن القاضي الاجيبي (ت:1277هـ/1860م)، وصالح عبد الوهاب الناصري (ت:1278هـ/1875م)، والشيخ سيدي الكبير الانتشاني (ت:1284هـ/1868م)، ومحمذن فال بن متالي القندغي (ت:1287هـ/1870م)، والشيخ محمد السلمي البركلي (ت:1292هـ/1875م)، والشيخ محمذو بن حنبل الحسني (ت:1300هـ/1882م)، ومحمد بن محمد سالم المجلسي (ت:1302هـ/1884م)(12)، ومحمد محمود بن التلاميد التركزي (ت:1904م)، والشيخ ماء العينين (محمد المصطفى) بن محمد فاضل القلقمي (ت:1328هـ/1910م)، والشيخ المصطفى بن العربي الابيري (ت:1339هـ1920م)، والحاج محمود باه (ت:1398هـ/ 1978م)، وابراهيم (ابام) بن أمانة الله (محمد الأمين) اللمتوني (ت:1380هـ/ 1960م)(13)، وغيرهم كثير.

2- التأليف والبحث في موريتانيا: (فترة ماقبل الإستقلال).

2-1- إذا استثنينا مؤلفات الإمام الحضرمي (ت:489هـ) نجد أن حركة التأليف الموريتانية لم تعرف بشكل ملحوظ إلا في القرن العاشر الهجري، وبلغت أوج ازدهارها في القرن الثالث عشر، ثم انهارت وتقهقرت في القرن الرابع عشر الهجري(14)، حيث تناول المؤلفون معظم العلوم المحظرية آنذاك(15) مثل:

- القرآن الكريم: ولهم في علومه (120) مؤلفا تعود مائة منها إلى (ق:14هـ).

- الحديث النبوي: ولهم في علومه (58) تأليفا، أربعون منها في (ق:14هـ).

- الفقه: حيث اختص فقه الفروع بأول مصنف ألفه محمد بن أحمد الوداني (كان على قيد الحياة سنة 953هـ)، وهو شرح على مختصر خليل سماه "موهوب الجليل".

وفي القرن (11هـ) تندر المؤلفات الفقهية، لكنها تزداد في (ق:12هـ) بنحو (10 مؤلفات) لتبلغ العشرات في القرن (13هـ)، والمئات في أوائل (ق:14هـ).

- وقد ظهرت الفتاوي في (ق:11هـ) وزادت على العشرة في (ق:12هـ)، وعلى العشرين في القرن (13هـ)، وعلى الثلاثين في (ق:14هـ)، أما في أصول الفقه وقواعده فقد بلغت مؤلفاتهم في (ق:13هـ) أكثر من عشرين تصنيفا، وزادت على الثلاثين في (ق:14هـ).

- في النحو والصرف ألف أحمد عبد الله المحجوبي (ت:937هـ/1526م) شرحا على الأجرومية، كما وضع الطالب محمد بن المختار بن الأعمش

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

(ت:1107هـ) شرحا على القريدة للسيوطي، وبلغت آثارهم في هذا المجال عشرة مؤلفات في (ق:12هـ)، وخمسة عشر في (ق:13هـ)، وثلاثين في (ق:14هـ). أما الصرف فكان رديفا للنحو، وذلك على الرغم من أن محمد علي بن زياد الديماني (ت:1160هـ) خصه بتأليف لايشترك فيه مع النحو، وبلغت مؤلفاتهم التي تشرح وتعلق على لامية الأفعال نحو (26) مؤلفا، كما أن لهم في مجال الصرف(36) تأليفا يتناول جلها مسائل الفعل، ويندر فيها ما يتناول مسائل الاسم. كما ألفوا (تصانيف) في المشاهير.

– في الأدب والعروض: اهتموا بالأدب العربي وتصنيف طبقات الشعراء كما ألفوا في العروض والقوافي ثلاث مصنفات في (ق12هـ)، وستة عشر مؤلفا في (ق:13هـ)، وسبعة وعشرين في (ق:14هـ).

– في التاريخ: ألف الموريتانيون في تاريخ بلادهم وفي التاريخ العربي والإسلامي بعامة، وتركوا في ذلك أكثر من (70مؤلفا) تتناول الوقائع والوفيات، وحوليات بلادهم وتاريخ مدنهم... الخ.

– في الجغرافيا: بلغت آثارهم نحو (15 مصنفا) تتناول جغرافية البلاد وتاريخها ومواضعها.

– في الرحلات: كتب الموريتانيون رحلاتهم خارج الوطن ومن أهمها: رحلة محمد يحي الولاتي ومحمد محمود بن التلاميد التركزي، والبشير بن امبارك، وتغلب أحمد بن الطويز الجنة، وإباه بن بابا ومحمد علي بن فتى.

– في السيرة والأنساب: اهتموا بسيرة النبي (ص)، ومغازيه، وشمائله، وبالأنساب العربية بعامة والموريتانية بخاصة فزادت مصنفاتهم في ذلك على (100) مصنفا في (ق:14هـ).

– في المنطق والجدل: ألفوا في الفلسفة والمنطق والجدل وعلم الكلام، وبحثوا في الخلود والبعث والنبوة ومذاهب الحقيقة وفي صفات الله، فلهم مائة أثر في هذا المجال، ستون منها في (ق:14هـ).

– في التصوف: ألفوا في مبحث الحقيقة والشريعة وأسماء الله الحسنى، وأسرار الكلمة والحرف، وفي المواعظ والأذكار والأدعية، وأغلب هذه المصنفات في (ق 14هـ) حيث صنفوا فيه نحو (300) مصنفا.

– في الطب: عرفت البلاد أطباء مهرة مثل: أو في الشنقيطي، ومحمد بيب بن الفقري، ومحمذ فال بن متالي، والشيخ ماء العينين، وإباه بن بابا، ومحمد الأمين بن الريفي.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

- كما اهتموا بالحساب والفلك والمنوعات (الموسوعات): مثل كتاب الأمزن والأجم، والأعداد(16).

3- مقومات البحث ومعوقاته: (فترة ما قبل الاستقلال):

3-1- لعلنا ندرك - اعتمادا على بيلوغرافيا المصادر المتوفرة(17) - أن الموريتانيين لتجوا مؤلفات وشروحا كثيرة تهدف إلى المساعدة على التدريس والإفتاء وتعليم الناس -كما سيأتي- ورغم أن هذه المؤلفات كانت تمثل في معظمها التقليد وعدم الجدية في البحث: (اختزال كتب الأقدمين واختصارها وشرحها)، إلا أن منها ما يمثل الاستقراء وحرية البحث وتنوع الآراء، حيث نجد بعض البحوث التي تناولت القضايا الفقهية، والفتاوي والنوازل والتي كانت تراعي النسبية وخصوصية فقه المجتمع البدوي الخالي من أي سلطة مركزية، ولمثل لذلك بكتاب البادية للشيخ محمد المامي، والكفاف في فقه البادية لمحمد مولود وغيرهما. كما تطرق البحث عندهم إلى القضايا العقائدية كالعلاقة بين حدود العقل والنقل عند المختار بن بونه، والمجددي، وبين العقل والتصوف عند ابن بونه والشيخ سيد المختار الكنتي(18).

3-2- أما العناية بعلوم اللغة والأدب عند الموريتانيين فكانت متميزة في تلك الفترة إذ يقول (جاك بيرك): "إن بلاد شنقيط كانت في القرون الثلاثة الأخيرة مختصة بالدراسات اللغوية والأدبية بالمقارنة مع سائر البلاد العربية"(19).

ولعل مما يدل على تميز الموريتانيين في هذا المجال أن الشيخ محمد عبده اعتمد على ابن التلاميذ المتركزي في إصلاح مناهج تدريس اللغة العربية في الأزهر، كما اعتمد عليه في تحقيق أهم المصادر وعيون التراث العربي، وفي النهضة الأحيائية بمصر(20).

ورغم أن الدرس اللغوي والنحوي والأدبي كان جامدا وقارا في شكل متون وبرامج، لايعرف التطور مذهبا إلا أنه "مع تمرس المثقف الشنقيطي بهذه النصوص، وتفاعلها مع معلوماته النحوية والنقدية تبلور عبر الزمان وعيه بأدبيته الخالصة، وأخذ الأدب من حيث هو فن ذوسنن ونواميس خاصة به، وذو قدرة على الاستجابة لحاجات نفسية وفكرية واجتماعية معينة يحتل حيزا من الشرعية في المجال الثقافي الشنقيطي، أو في بعض قطاعاته على الأقل... ولعل انتشار هذه الثقافة اللغوية الأدبية القائمة على التعامل المباشر مع النصوص كان رافد إثراء وتطوير سمح بالخروج من ربقة المتون التعليمية وضيق أفاقها..."(21).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

3-3- ويتضح في سياق المعرفات أن الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية بصورة عامة، تمسكن في الماضي وتستثمر فيها التراث وروح السلف. فلم تخرج دراسة أي باحث خصوصيات مفكر، على مجال البلاغة استخدموا مفاهيم تراثية مثل: (الدين في مذاهب الفكر جدة: "اللفظ والمعنى" كما أنهم في الشعر لم يختلفوا عن نظرة العربي في تكوين، فالتزموا بمقدماته الطللية وأغراضه وبحوره.

ولم يكن لاختراع المصطلح ورضعه من حق من استنبطه، فإن ذلك لا يعني خلوه من العيوب، بل أعدّه مواضعة للتخصيص العرضي، استثمارا للإمكانيات الكامنة في المجاز والتحت والاشتقاق مع ارتباط المصطلح بالواقع العلمي والثقافي... "(22). ويشكل نقل المصطلح النقدي على النقل بين حدود اللغات والترجمة، أو بين العصور بالأحياء والبعث، أو بين المعارف بالتلاقح والاكتساب"(23).

3-4- ويضاف إلى سياق معوقات البحث أن تراثنا القديمة كانت تحت مسمى كل علمية ممكنة، فلم يكن أسلافنا يرسمون الحدود الواضحة بين العلوم الإنسانية والفنون والإيديولوجيا.

ففي مجال البحث اللغوي والنحوي فإن الموريتانيين لم يكونوا يدركون أن اللغة الطبيعية نظام علامات يعبر عن الفكر، ويعتمد على شبكة الوشائج المتبادلة بين وحداته (العلامات اللغوية)"(24). فالبحث اللغوي لم يكن يعتمد عندهم على الوصف والاستقراء والتحليل، والتركيب والشرح والتفسير، والاستنتاج والحكم، بقدر ما كان يعتمد على القياس الأرسطي والمنطق الصوري والتعليل والتأويل البعيدين. فم يختلف المنهج اللغوي والنحوي عندهم عن منهج النحاة القدماء والذي كان يتصف بالسمات الآتية:

1- يعتقد الموريتانيون أن اللغة موروثة عن الآباء والأمهات فقط. لذلك رفضت لديهم فكرة الفصاحة بالجنس العربي فتحرجوا من الأخذ عن أمثال ابن لمقفع - لأصله الفارسي- في مؤلفاتهم النحوية واللغوية في حين أنهم لم يتورعوا عن الاستشهاد بكلام المجانين والأطفال تقليدا للقدماء.

2- كما أنهم يخلطون بين الشواهد الشعرية والنثرية إزاء تطورهم وتقعيدهم مع أن للشعر قواعده ونظمه وخطابه وضرورته التي يختص بها.

3- لم يكثروا من الاستشهاد بالقراءات والحديث - أسوة بالأقدمين- رغم أنهما من النثر الذي يفضل الشعر لضرورته وخطابه الخاص -كما تقدم- وقد

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

لاحظ محمد مولود اليعقوبي ندرة اهتمام النحاة بالاستشهاد بالحديث وتخريج شواهد بقوله: "... إلا أني رأيت إقبال الناس على شواهد النحو من الشعر ضبطا وشرحا، وتركهم غيره فشق علي ذلك الترك في القرآن والحديث، واعتزمت لهما شرحا، فهممت بهما... ثم نظرت فإذا شواهد الآي كثيرة جدا وأنا في شغل عنها... ولها لي حفاظ وحذاق، والحديث شواهده يسيرة، وشروحه هنا نزيرة، ولا أعلم لها في القطر... فأتيت بما تيسر لي في الأحاديث..."(25).

4- كما أن الموريتانيين كانوا يخلطون في شواهدهم اللغوية والنحوية بين مستويين من اللغة لاينبغي دمجهما في مستوى واحد وهما: "اللغة الأدبية النموذجية" الممثلة في القرآن، والحديث، والخطب، والأمثال، والشعر، ومستوى اللهجات العامية -القبلية- ولغة الخطاب اليومي.

5- يكثر المنهج اللغوي - عند الموريتانيين- من التأويل والتقدير وحمل النصوص على غير ظاهرها، واستخدام العامل الثواني والثوالث، واستخدام كثير من الأقيسة النظرية التي لاتستند إلى كلام العرب مثل حال النحاة القدماء.

6- لم يهتموا بتحقيق مدونة النصوص والشواهد النحوية، واللغوية المستخدمة في التقعيد (متنا وسندا). فقد تابع النحاة الموريتانيون القدماء في نسبة الشاهد إلى غير قائله ويروون المتن ويبنون القاعدة على موضع الخطأ منه، كما أنهم لم يدرسوا الرواة من ناحية الضبط والثقة والكذب والخلط(26).

فالمدرسة النحوية الموريتانية كانت مدرسة بصرية - أندلسية لأنها تعتمد انتقاءات ابن مالك التي يخالف فيها البصريين في أحيان كثيرة، حيث انتشر الدرس والبحث اللغوي حتى بلغ أقصى مداه في القرن الثالث عشر الهجري.

7- ولعل الأدباء والشعراء الموريتانيين كانوا يطمحون إلى الخروج على القوالب الجاهزة وعلى المتون التعليمية. فقد اشتكى الشاعر المختار بن المعلي الحسني (ت:1300هـ/1882م) من أحد معاصريه عند مالحنه في كلمة كان قد استخدمها في شعره فرد عليه برسالة يقول فيها: "اعلم... أن العربية غير محصورة ولامقصورة، بل هي منثورة ومنشورة، ومريدها في المصنفات كطالب الشيء بعد الفوات، وإنما هي في البيت النادر والمثل السائر ودواوين الشعراء وخطب الخطباء من العرب العرباء، والجاهلية الجهلاء. فمن لم يزاحمهم على حياضها ضل في مآسدها وغياضها، واشتبهت عليه رباها واختلطت عليه ظباها..."(27).

ولعل موقف ابن المعلي -المتقدم نقدا- من النحاة ينسجم مع نزعة الرفض وتمرد الشعراء على النحاة للسيرة الصارمة عندهم في اللغة، ولاهدارهم كما هائلا

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

من اللغات واللهجات المندثرة، أو المذكورة عن أهلها ومعاصريهم، مثل المثل مع بعض الكلابي حين عاتب عليه اللحاء هذا البيت:

بانت لحيمة والدنيا مفرقة وحال من دونها غيران مزعوج

فقالوا له: لايقال "مزعوج"، وإنما يقال: مزعج - مع أن المتقدم له كان باطلا أن "زعجه" مثل "أزعجه"، لذلك هجا الكلابي اللحاء بأبيات منها(28):

ما لي لقينا من المستعربين ومن أياس لحوهم هـذا الذي ابتدعوا
إن قلت قافية بكرا يكون بها بيت خلاف الذي قالوه أو نزعوا
قالوا لحنت وهذا ليس ملتصبا وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرضوا بين عبد الله من حمق وبين زيد لطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم وبين قوم على إعرابهم طبعوا
وبين قوم رأوا شيئا معاينة وبين قوم رأوا بعض الذي سمعوا
ما كل قولي مشروحا لكم فخذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأن أرضي أرض لاتشب بها نار المجوس ولا تهلى بها البيع
ولابطا القرد والخنزير ساحتها لكن بها العين والغزال والصدع

4- مقومات البحث ومعوقاته (الفترة مابعد الاستقلال):

4-1- تقدم في مستهل هذا المقال أننا ننتمي إلى أمة توسم بأنها: "أمة قول بلاغ" فالمجتمع الموريتاني ظل إلى عهد قريب، ولعله مازال لحد ما ذا ثقافة شفاهية تلقينية في المقام الأول، كتابية لغوية في المقام الثاني"(29). فالبحث الموريتاني - إبان الاستقلال- لم يكن قد تهيأ لممارسة الحداثة كظاهرة طبيعية تستجيب لتقلبات الأزمنة وتفترض صراعا مع القابليات القائمة، وتصحيح وضعية الإستلاب، وتقطع مع الماضي إذا لم تتضح الصورة عنه بشكل كاف، وتتكر للأصالة إذا اختصرت في الكتابة والتفكير السلفيين، فلم يتمرس المنهج الموريتاني- إذ ذاك وربما حتى الآن- بالحداثة في اللغة والأدب، تلك الحداثة التي تمثل- حسب مطاع صفدي- دعما لاتجاه صاعد، ثغرة تفتح في كثافة الوثوق الموروث، "ليس للخلف إلا أن يؤسس وجوده دون تغييب للسلف لأن الطرح المتقدم لسلف مصلم، أو مغيب بالقصد، وخلف منفصل عن سابقه، أو امتداد ظلي له لم يعد متقدما، أو ثائرا على حسم تعاقب الأزمنة وتداخلها(30).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

فالاحساس بالتصدع وانهيار المفاهيم السابقة من أهم محفزات إعادة القراءة وتجديد النص على غير مثال. ولايعني ذلك الخروج عن الأصالة والقطع مع الماضي، بل لصالح الإبداع.

4-2- ولم يعتمد الباحث الموريتاني- بعد الاستقلال- المراحل الثلاث المعروفة لعلم التأويل- وهو يتناول النصوص بالشرح والتطبيق والتحقيق- وهي: الفهم، والتفسير، والتطبيق. فلم يوفق في تحديد كيفية إدراك العملية الأولى للفهم الذي ينطلق من الخطاب الشفهي، وليس من النصوص: (كل عملية فهم تتعكس لعملية الكلام). فلم يمحور - الباحث الموريتاني- مسألة الفهم على المتكلم الاجابي، وعلى ذاتية المؤلف؛ (التفسير النفسي بجانب النحوي)، ولا على استبدال نظرية الكتابة المتعددة المعاني بنظرية تعدد طرق التفسير: "الفهم التاريخي الذي يرجع إلى المضمون، والفهم النحوي الذي يرجع إلى الشكل واللغة والعرض، والفهم الذهني الذي يعتد بذهنية الكاتب وذهنية العصر"(31).

4-3- ومن أهم مقومات البحث اكتساب المجتمع عادة القراءة، وتوطين الثقافة المكتوبة وتمرس النخبة بالمناهج الحديثة التي تستخدم التفكير بشكل منظم وواضح ودقيق: (تحليلا وتركيبا وشرحا وتفسيرا وحكما واستقراء واستنتاجا)، وتمكن القارئ من فهم النص لغويا وأدبيا. وفي هذا الصدد لابد من توفر النشر والتوزيع حتى يكون الكتاب والدورية في متناول الجميع، كما أنه لابد من توفر مستوى مادي لمجتمع النخبة الذي ينتج ويستهلك الثقافة والمعرفة معا.

4-4- وعلى خلاف توفر هذه الضرورات لمقومات البحث العلمي في موريتانيا- بعد الاستقلال- فإن هذا المجتمع ظل إلى عهد قريب "تنعدم فيه أو تكاد عادة القراءة والثقافة النقدية، كما ينعدم فيه بالأحرى النشر، ويغيب فيه الاحتكاك بالثقافة الحديثة والثقافة الأجنبية خاصة"(32).

ورغم أن البلاد بدأت صلته بالحضارة الأوروبية مبكرة، فتعرف على طلائع الاستعمار في بداية هذا القرن، وتأسست الدولة المركزية فيه سنة 1960م، كما بدأ الاحتكاك -عندئذ- بالثقافة العربية والعالمية المعاصرة بسرعة، إلا أن القراءة والثقافة الكتابية ربت فيه على استحياء واحتشام وعلى غير المنظور لها.

4-5- ففي مجال الدراسات اللغوية والأدبية عرفت المختارات التي من أهمها: "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط" لأحمد بن الأمين الشنقيطي، و «شعراء موريتانيا» للخليل النحوي و «الشعر والشعراء في موريتانيا» لمحمد المختار بن اباه.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وقد تميز كتاب ولد اباه الأخير عن المختارات السابقة بمدخله التاريخي النقدي الهام والذي حاول فيه أن يؤسس منهجا لمقاربات نظرية، تصنيفية للشعراء الموريتانيين قبل القرن العشرين.

ولم تهتم المختارات الثلاث بالمعالجات الجادة للنصوص الشعرية، رغم أن بعضها كان يهتم بمداخلات نقدية مقتضبة إلا أنها غير منهجية.

4-6- أما الأعمال الأكاديمية في مجال الأدب واللغة، والتي تمثلت في أطروحات دكتوراه الدولة، والمرحلة الثالثة، والنظام الجديد فكانت تربو على الثلاثين بحثا.

ورغم أن هذه الدراسات كانت أكاديمية، جادة، أعدها موريتانيون، إلا أنها كانت تمثل إنتاج الجامعات التي أعدت في أحضانها ببغداد وطرابلس (ليبيا)، والرباط، وتونس والقاهرة، ووجدة والرياض وباريس... الخ، حيث لم تكن تمثل الثقافة الموريتانية بشكل مباشر، وهي في معظمها تشترك في كونها لم تنشر بعد(33).

4-7- ولم تتأسس أول صحيفة في موريتانيا إلا في سنة 1975م، حيث تأسست الشعب بشقيها العربية والفرنسية، وظلت الوحيدة في الساحة الثقافية حتى 1991م، وظل التواصل والتفاعل محدودا بين الكاتب والقارئ حتى ظهور مذكرات التخرج بالأقسام الأدبية في المدرسة العليا لتكوين الأساتذة سنة 1980م، وفي جامعة نواكشوط، والمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية في الثمانينات(34).

وللأسف فإنه على الرغم من أن تلك البحوث كثيرة العدد فإن القليل منها هو الذي يعالج موضوعاته بمنهجية مقبولة علميا، كما أنها تهتم في معظمها بتحقيق النصوص أو تتناول الأغراض فقط دون طرق العمق اللغوي والدلالي(35).

4-8- ونلاحظ هنا أنه من مقومات البحث العلمي - في مجال الدراسات اللغوية والأدبية- أن يتمثل الباحث بعمق المناهج الحديثة في العلوم الإنسانية: كالمنهج البنيوي والأسلوبي والجدلي المادي والنفسي والاجتماعي والتاريخي والانتروبولوجي واللساني والعلائمي والتجريبي والرياضي... الخ.

4-9- ورغم أن العقل يمكن أن يكون قد خفف من حدة الخرافة في فكرنا ومنهجنا، وأن العلم كاد يحررنا من الأوهام، وأن التاريخ قارب أن يزيح من حياتنا المتعالي والقدسي إلا أن التاريخ رموزه وآلهته والفلسفة لاهوتها والعقل مقدساته والفكر أصنامه وأوثانه وطوطماته. فلايمكن تناول مسألة العقل بمعزل عن الخيال والاسطورة ولايمكن تحليل العلم بعيدا عن الوهم والاعتقاد. فالوهم هو أصل العقل وشرطه، وهو الحد الذي يقف عنده... إن أعظم منجزات العقل تجلت في نقده

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

للنفس، وفي التنقيب عما لايقوله في الكشف عن اللغة الاسطورية التي يستنبطها وعن الأوهام التي تسكنه: أي عما لايمكن عقله في العقل نفسه" (36).

4-10- فلا مناص للبحث اللغوي والأدبي من أن يوطن في حقله جملة مفاهيم علوم الإنسان: كمفهوم الوظيفة في علم النفس، والنزاع في علم الاجتماع والدلالة في دراسة الاساطير. فالانسان يحيا من خلال وظائفه، ويصارع الآخرين على حاجاته، ويتطق ويرمز بحثا عن الدلالات، لذلك لابد من استيعاب مفاهيم المعيار والقاعدة والنسق باعتبار أن المعيار يحدد الوظيفة، وأن القاعدة تضبط النزاع، وأن النسق يولد الدلالة (المعنى) رغم أن المعايير محايدة والقواعد غفل والأنساق مقفلة(37). كما أنه لابد للبحث اللغوي والأدبي من اكتساب منهج يعتمد طريقة في البحث كالاستقراء والاستنتاج والمقارنة... ومبادئ ملزمة كالموضوعية وعلاقة السبب، ومفاهيم تحول موضوع البحث من مادة خام خالية من المعنى والمعقولية إلى معان معقولة (38).

4-11- ومن المعوقات العامة للبحث العلمي أن الباحث يصارع على أكثر من جبهة، فتارة يصارع ذاته التي ترفض الخضوع لرغبة السلط (المعرفية والسياسية)، كما يصارع مؤسساته التي ينتمي إليها، وتتزايد الضغوط عليه منها أكثر عندما يكون مبدعا، كما يصارع أيضا مجتمعه الذي يحاول فرض فكره ومعارفه - المناقضة - والمألوفة لديه، ويضاف إلى ذلك أن الباحث الذي يهتم بأحداث مجتمعه، وتشريح واقعه مسكون بالقلق والاضطراب والهم تجاه مايجري وفي ظل مختلف الضغوط(39).

ومن المعوقات - أيضا- في حقل الدراسات الإنسانية بعامة تأثر الباحث بالحداثة والدولة ومؤسساتها، لأن الدولة أقدم من الباحث وتؤثر بها ويعول عليها، كما أن الانفصام اقدم من التواصل في التكوين المعرفي للباحث وفي علاقته بالمجتمع، وأن المشغل السياسي سابق على الثقافي والعلمي مما يجعل العلم والفكر بعامة مطية للايديولوجيا. كما أن الباحث يتأثر سلبا بالهيمنة الثقافية الغربية، خاصة في ظل الأحادية القطبية الجديدة، والتي تهتم بدراسة أنشطة الأحتكارات الدولية وتغلغلها الثقافي والإعلامي، واحتكار دول المركز لمصادر المعلومات والثقافة(40).

4-13- وعلى الباحث أن يهتم بمشاكل مجتمعه ويرتبط بها، ويعتنق الروح العلمية الجديدة باطلاعه الواسع على ما يستجد في نظرية المعرفة و"الإبستمولوجيا" المعاصرة، ويتمرس بالعمل المنهجي الدقيق، واستخدام المفاهيم والمصطلحات والأدوات في مجال الدراسات الإنسانية.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

كما يجب أن يكون البحث العلمي بجامعة قطر مشروط بالعمود الفقري بها خاصة في ظل غياب مراكز البحث المتخصصة، وغياب جامعات أخرى تساهم في تحمل بعض الأعباء بهذا الشأن. لهذه الجامعة تعقد عليها آمال جسام ترتبط بتحديث العقل وتحيينه بواسطة العمل الواعي والهادف والدؤوب الذي يجب أن تتبناه الجامعة تكاديميا وإداريا في شكل مناهج ووسائل وأدوات تهدف إلى تحفيز العقل وتزويده بطاقات ومواهب خلاقة، وتوقظ الذات من سباتها السلبي. فغاية الجامعة ليس التعلم، أو الاكتساب المعرفي، بل التدريب الذهني والفكري: (تمرس العقل بالمعرفة). فالمتاعص للجامعة -إذا أرادت أن تبقى وفية لأهدافها -من أن تهتم بتوفير التدريب والمران والخبرة بقصد تنمية روح البحث الفطرية، والمكتسبة معا. والمعنية بالفحص العلمي الدقيق، المنظم، والمتسم بالصدق والصبر والإخلاص والموضوعية.

4-13- إذا كانت مراكز البحث العلمي - في البلدان المتقدمة علميا... والتي تعيش هواجس مستقبلها - تمثل عصب جامعتها واقتصادها وحضارتها فإن مراكز البحث بهذه الجامعة تتميز بركام من الغبار والتكرار والاجترار والاختصار والابتسار... ولم تكد تصل إلى الهدف المنشود مثل نظيراتها في الوطن العربي، لذلك فإنه لابد للجامعة أن تسعى إلى ترسيخ حرية البحث والتفكير والنقد. فلا تقدم المعرفة على أنها "كلمة أخيرة ونهائية" ولأن الكلمة الأخيرة للتجربة والاختبار، والحتمية والنسبية والتاريخ، فلا يخضع الباحث لأي سلطة عدا سلطة العقل والحقيقة والمنطق، ولايطغى التلقين على البحث، ولا التصديق على النقاش. لذلك فإن الجامعة ومراكز البحث العلمي -رغم أنها تعتمد أساسا على التمويل الحكومي- يجب أن تكون "الملاذ والمعيار والمقياس والحكم لحظة الانحراف"(41)، والاستبداد والطغيان، كما ينبغي للباحث أن ينتهج "المنحى التشكيكي- التفكيكي الذي يسعى لمناهضة انغلاق الفكر وامبريالية المعنى ومنطق المماهاة، وهو يناهض بذلك الاستبداد السياسي والطغيان الجمعي، والانضباط الفاشي، والنرجسية الطائفية"(42): (مناهضة الحرب على الآخر باسم الإيديولوجيا).

4-14- وحتى لاتتحول أهداف الجامعة إلى وسيلة لضبط التفكير وتعليبه وتوجيهه بهدف الكسب السياسي، وتأمين دعم السلطة، وطرد كل باحث، أو فكر لايتبنى الإيديولوجيا السائدة، وكي لايقتصر دورها أيضا على تصنيع الشهادات كسندات ملكية بدون أرض، وصكات مالية دون رصيد، أو "كآلة تفريخ للاستعباد العقلي والتبعية الفكرية، وقاعدة لتوليد عناصر اجتماعية مشبعة بالعقلية الفردية والنفعية ومعادية للأغلبية من السكان"(43). وبعيدا عن ذلك فإن الجامعة يجب أن

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تهتم بتحديث العقل وتحريره وترسيخ الأصالة والإبداع، وبدون ذلك فلن العلم قد يتحول إلى معول لتخريب العقل وتشويه اللغة القومية بالتغريب والنقل والترجمة في ظل ابتعاد المجتمع عن إنتاج العلم والمعرفة والثقافة محليا.

4-15- ولعل هذا الجدب في البحث والإبداع النظري والتطبيقي بجامعة نواكشوط الإمكان تحريره ولاتهيه إلا في ظل نسق لأزمة البحث والكتاب في الوطن العربي بعامة، والذي يعرض لحصاء اليونسكو لعام 1975 صورته القاتمة في أن الوطن العربي الذي يزيد على (150) مليون نسمة لاينتج إلا (4900) كتابا في العام وهذه النسبة لاتتجاوز 35 كتابا لكل مليون نسمة، في حين تصل هذه النسبة إلى 182 كتابا بالنسبة لمتوسط العالم ككل. بينما في أوربا ترتفع النسبة لتبلغ558 كتابا لكل مليون ساكن، ويكفي أن نسبة الوطن العربي تنخفض عن المتوسط الأسيوي، والتي تبلغ 62 كتابا لكل مليون ساكن، ولاتقترب منها في الانخفاض إلا النسبة الإفريقية التي هي 27 كتابا لكل مليون ساكن، كما تنخفض مساهمة الإنتاج العربي في الكتاب إلى 0.5 بالمائة من إنتاج العالم بينما يشكل العرب 4.5 بالمائة من سكان العالم(44).

وينتزج في هذا السياق أن الإحصاءات تؤكد زيادة عدد المؤسسات العربية العلمية وعدد طلابها، حيث أكدت إحصائيات اليونسكو المستوية على أن عدد الجامعات العربية قد تضاعف حتى وصل عام1995م إلى 132 جامعة تضم 957 كلية في مختلف الاختصاصات، وارتفع عدد الكليات – خارج الجامعات- إلى 150 كلية، كما بلغ عدد المعاهد العليا 359 كما ارتفع عدد المسجلين في الجامعات من مليون ونصف عام 1980 إلى أكثر من مليونين ونصف عام1990م ويقترب الآن من ثلاثة ملايين طالب جامعي.

كما ارتفعت نسبة الانفاق على الجامعات من الناتج القومي من 5 بالمائة عام 1970م إلى 6.4 بالمائة عام 1988م وتجاوز مجمل الانفاق على التعليم 30 مليار دولار عام 1990م "غير أنه على الرغم من هذا التوسع -وربما بسبب هذا التوسع- تعاني المؤسسات التعليمية في معظم البلدان العربية إشكالات عديدة متشابهة مثل الاكتظاظ بالطلبة، فقر الموارد التعليمية والمخبرية المساعدة، شح المراجع، فقر المكتبات، انعدام التفاعل مع مؤسسات التعليم العالمية، والتخلف عن اللحاق بالمستجدات... في العلم والتقانة وبشكل خاص تقانات المعلومات وأدواتها المتعلقة بوسائل التعليم"(45).

ورغم أن نفقات التعليم قد بلغت 30 مليار دولار عام 1990م، كما سبق إلا أن نفقات البحث العلمي في الوطن العربي قدرت في سنة 1992م بنحو 600

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بلدان دولار فقط، ويمثل هذا المبلغ أقل من 0.14 بالمائة من الناتج القومي الإجمالي العربي، كما أنه من أدنى المعدلات في العالم الثالث (46).

وتعد من المفارقات العجيبة أنه في سنة 1996م أسهم الباحثون العرب بنصو برقية الآف بحث علمي لدوريات عالمية محكمة وتزيد هذه المساهمة عما انتج في ترزيل وتعادل 60 بالمائة مما انتج في الصين و50 بالمائة مما انتج في الهند وتزيد ب30 بالمائة عما انتج في كوريا الجنوبية خلال السنة ذاتها(47).

وللأسف فإنه لايوجد إلا القليل من النشاط في حقل البحث العلمي خارج ليمعات، وأقل من ذلك داخل المؤسسات الصناعية. باستثناء المعهد الموريتاني لبحث العلمي، ومركز البحوث القومي المصري، ومعهد البحث العلمي في الكويت، ومعهد الإنماء العربي، ومركز دراسات الوحدة العربية. كما لا يوجد تعاون كبير بين الباحثين العرب فيما بينهم، ولا مع الباحثين في الغرب باستثناء الجماعة العلمية لمغاربية التي ماتفتئ تتعاون مع الجماعة العلمية الأوربية، وكذلك أيضا فيما عدا بعض الزيادة في اعداد العلماء المصريين في اقطار مجلس التعاون الخليجي(48).

ويبدو أن من أهم معوقات القدرة العلمية أن الجامعات والمعاهد العليا العربية زالت تعتمد التقويم التقليدي في امتحاناتها والذي تركز فيه على حفظ المعلومات ولس على تحليلها وابتكارها واكتساب المهارات والمفاهيم.

4-16- كما أن من أهم عوائق الأبتكار في الدراسات الإنسانية بعامة: أن باحث الموريتاني لايهتم بالخروج -ولو قليلا- إلى هامش اختصاصه، رغم أن ذلك الاهتمام المطلوب شرط أساسي لتحقق الإبداع والابتكار، خاصة في ضوء تكامل مناهج العلوم الإنسانية، كما يندر اتصال الباحثين - بعضهم ببعض- لوجود معوقات مثل:

1- الإيديولوجيا: التي قد تمثل ما نعا للتواصل.

2- تباين المناهج والمفاهيم الذي لايشجع على التواصل والتشاور بين ذوي الاختصاص.

3- عدم إتقان اللغات الحية العالمية.

4- ندرة المطابع والناشرين، وغلاء الطباعة والنشر وانعدام الدوريات العلمية المتخصصة.

ونلاحظ هنا أنه لابد لتوفير مناخ الإبداع والابتكار من التخصصات والاتصالات العلمية من ناحية والتلاقح العلمي من ناحية أخرى، كما أنه لامناص من تسامح وتبادل الأفكار، وتنقية المفاهيم من الضبابية(49) وتوحيدها والخروج من التخصصات الضيقة إلى التخصصات المجاورة لأن المزج (التلاقح) بين

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

المتخصصين لم تكثر بعد لتوطنا ضروريا لتكثيف ظاهرة الإبداع والابتكار في الساحات.

4-17 - يضاف إلى هذا السؤال أن من أهم المعوقات - في مجال الدراسات الأدبية - عدم تحديد المستوى النقدي وعدم تجديده، ولا بد لذلك من إصدار معجم بالمصطلحات النقدية القديمة، والتعريف بها والمفاهيم النقدية الجديدة، والمصطلحات النقدية الأجنبية(51).

ورغم أن مكتب تنسيق التعريب "بالرباط" يفترض منه أن يقوم بتبسيط واستعمال المفاهيم القديمة، والتوسع على مصطلحات جديدة ووضعها في معاجم لغوية إلا أن ذلك لم يتحقق للنقد الفعالية المطلوبة في هذا الصدد، ولابد أن يتم ذلك في ضوء أن الغاية من البحث في التراث الانفتاح على إشكاليات العاصر واكتساب مناهج لقراءة النص الأدبي، وتحقيق النهضة العلمية المنشودة.

4-18 - إن جامعة دولة الشروط - بوصفها مؤسسة علمية، أكاديمية للشعب السوريتي الذي يدين بالإسلام ويعمل على توطين الحداثة (الديمقراطية - الليبرالية) وتأكيد الهوية منهجا- مسؤولة وبشكل ملح عن إعادة بناء التراث القديم وفق أنساق تتفق وروح العصر، ولابد لهذه الجامعة أيضا أن تهتم بنقد الثقافة الغربية الوافدة والتحرر من أسرها للعقل والذهن، وفهم التراث الغربي والحداثة في إطار النسبية وظروف النشأة التاريخية والإقليمية مثل الثقافات المحلية الأخرى بعيدا عن "النظرية المركزية الأوربية" وأسطورة الثقافة العالمية التي تهدف إلى الهيمنة الثقافية والاقتصادية والسياسية. لأن الحقيقة في عصرنا أصبحت أنثية: (قابلة للتعديل والتصحيح) ولايمكن لأي ثقافة أن تنفرد وحدها بادعاء الحقيقة المطلقة(52). رغم أن الكونية هي أفقنا في المنظور ولن تكون إلا محصلة النسبية لجميع ثقافات العالم التي تعبر عن جوهر الإنسان بأشكال مختلفة ومتنوعة.

فلا بد لهذا المجتمع أن يصحو من غفوته على ذاته (تاريخيته) ولابد للجامعة أن تدرس التراث بشكل مسئول وخال من التهويل والتقليد الموروث والاستقاط والأسطورة... وبعيدا عن «الهوس الثقافي» المشهود والقبعية للغرب ومفاهيم علاقة ثقافة المركز بثقافات المحيط، ومركب العظمة عند الآخر ومركب النقص عند الأنا. لأن الوعي الأوربي أدى إلى الأزمة البائسة للفكر، فالمعرفة عنده إما حسية أو عقلية أو وجدانية وليست كل ذلك في نفس الوقت... كما أفضى الوعي الغربي إلى النسبية والملا إرادية والعدمية والملا أدرية...

4-19- وفي المقابل فإن أزمتنا ربما كانت أسوأ، رغم أن المفكرين الإصلاحيين العرب أكدوا أن العلم ابن الدين وثمرة من غرس الأسلاف وأنه

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

الإنسان الروح والإيمان والوجدان والحدس ونور القلب، غير أن العلم - وإن كان يصدر عن الإيمان والعقل- إلا أن الإيمان ليس موضوعا للعلم أصلا، لذلك ينبغي تخليصه من الشمولية المطلقة التي ترى العلم إذا لومها للعرب وتلبسه ثوبا دينيا ونرسم له طريقا محددة، ولاتكتفي بفرض الاخلاق فقط عليه.

وفي الواقع عندنا، فكان الأخلاقي أساس وغاية وأولى من المصلحة والحياة وكان المثالي سابق على الحس وكان الماضي سابق على الراهن والمستقبل(52).

4-20- ولتجاوز ثقافة النص وعقلية التأويل ومنهج القراءة لابد من التنظير لمعاصر الواقع (مصدر الخصب والنماء)، ورفض قراءة الواقع من خلال النصوص الموروثة، أو الوافدة، فالواقع يسبق الفكر وليس العكس.

وللأسف فإن البنى الاجتماعية والثقافية -عندنا- لازالت تشكل رافدا حيويا للذهنية الانفعالية والرؤية "الماقبلية" والتفسير اللاسببي (الخرافي) للظواهر والعلائق.

4-21- فالباحث الموريتاني مازال يتهيب ويخاف من نبش تاريخ بلاده، وبحث واقعه بشكل موضوعي، خال من التبجيل، يعتمد الوثيقة المنقودة، والمنهج تاريخي، فيخاف من إثارة القبائل والسلط الدينية والسياسية والاجتماعية... ويخاف حتى من نقد النصوص الأدبية نقدا يتفق والمناهج البنيوية والتفكيكية والتاريخية. والواقع يتوجب أنه إذا أردنا النهوض فلامناص من نقد تصورنا للعالم والواقع والحقيقة والمال والامتناع عن التمسك بالشكل واللفظ والحرف والنص على حساب الاستمرار الفعال في دراسة الواقع والحياة.

خاتمة وإثارة

5-1- إن معوقات البحث والكتابة والقراءة تتجلى في المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية التي يواجهها المجتمع بعامة والباحث بخاصة، حيث تتمثل العوائق الاقتصادية في غياب الحوافز المادية للبحث، والمدرس وتوفر الاجهزة، والمراجع العلمية، والبيئة البحثية: (المكاتب والمختبرات) والسكن المناسب، والتمويل الكافي. وتلعب بعض العادات الاجتماعية دور العائق أيضا كالالتزامات الاجتماعية: (الاستقبالات والزيارات الفوضية)، وعدم اقتناع الباحث والأستاذ الجامعي والمجتمع بجدوى البحث العلمي، من العوائق السياسية استخدام الباحثين في مهام لتجييش الرأي العام، ومنها الضغوط التي تمارس لمنع بعض الأبحاث من النشر.

أما العوائق الإدارية فتتحصر في تفشي البيروقراطية فيما يتعلق بإجراءات البحث وتحيين غير الباحثين لإدارة السياسة العلمية وتصنيع قراراتها(53).

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

5-2- أما ملومات القراءة والكتابة والبحث فيمكن اعتبارها من ناحية الكم الجامعي ومراكز ومعاهد البحوث والدراسات، وعدد المجلات العلمية المحكمة، وعدد المختصين والباحثين، وحجم الميزانية المخصصة للبحث. أو من ناحية المعيار النوعي الأكاديمي والانتاجي للجامعة ومراكز ومعاهد البحوث. ويتمثل ذلك في رسم الخطط البحثية، وبناء التصاميم والاستراتيجيات التنموية، ووضعها في اطار نظرية، لذلك فإنه لابد أن تشغل الكتابة والقراءة بالتحديات التي تواجه المجتمع والإنسان - أفقيا وعموديا- خاصة في المأكل والمسكن والتربية، والحياة بعامة، وفي البناء والسلم والحرب، والتنمية والثقافة، والفن، وفي الحرية والاستبداد، كما لابد أن تؤدي القراءة والكتابة إلى الحركة الهادفة لغايات وقيم تستطيع إعادة التشكيل والتطور، وترفض الأسس السياسية المهيمنة على سلطة القرار، والعولمة الاقتصادية المنفردة بسلطة المال، والكونية الثقافية المسيطرة على سلطة المعرفة: (معلومة ومنتج اقتصادي، وقيمة مالية).

5- 3- إن الجامعة ومراكز البحث العلمي مسؤولة عن تطوير البحث العلمي استجابة لحاجات المجتمع بما يتناسب ومعطياته الثقافية والفكرية والاقتصادية، والمساهمة في رفع المستوى الحضاري والفكري والعلمي للوطن العربي والأمة الإسلامية والعالم بأسره عن طريق التأهيل المناسب والأمثل للقوى العاملة، وتطوير العمل وتحديثه بشكل عام، والعمل على ترسيخ القيم الأكاديمية والأعراف الجامعية، حيث تتأصل حرية البحث العلمي كمنهج وأسلوب.

5-4- ولعل من أهم عوائق تحقيق الجامعة أهدافها بفعالية:

1- أن الجامعة حديثة النشأة وقصيرة التجربة والخبرة.

2- وتركز على التدريس أكثر من الأهتمام بالبحث العلمي وذلك لكثرة أعباء التدريس الملقاة على الأساتذة تجاوبا مع تزايد أعداد الطلاب والذين لايتوفر لديهم خيار إلا الجامعة الوحيدة بالبلد.

3- عدم ربط البحوث بالتنمية الشاملة بالبلد وتكييف التعليم مع المجتمع ومنهج تفكيره.

4- غياب التنسيق وتبادل الخبرات بين المهتمين بالبحث العلمي.

5- قلة الباحثين وضعف إنتاجهم بالمقارنة مع البلدان المتقدمة لفقدان الحوافز المجزية ماديا للباحث الذي يحيا بشكل اجتماعي مرغوب وباهظ التكاليف.

6- عدم توفر الدراسات العليا بجامعة لواكشوط، وعدم اكتتاب الأساتذة والباحثون الجدد لضخ دم أكاديمي جديد، بالإضافة إلى تخفيف أعباء التدريس عن الباحثون القدماء.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

7- نقص المراجع والدوريات المتخصصة بالعربية، وعدم جدية ماوصل منها بالفرنسية، وانعدام المراجع باللغة الإنجليزية التي تكتب بها الابحاث الجادة في العالم لحاجز اللغة عندنا.

8- ضآلة مخصصات البحث العلمي في ميزانية التعليم العالي، والمؤسسات المعنية، وعدم مساهمة مؤسسات القطاع الخاص فيها.

9- هروب الأساتذة والباحثين إلى الإدارة والتسويس بحثا عن السلطة والامتيازات المادية المعدومة -أصلا- في هذا الحقل، وكذلك الهجرة إلى الخارج للحصول على عقود مجزية تتناسب ومتطلبات الحياة الباهظة.

الهوامش

1) د. محمد المختار بن اباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، الشركة التونسية للتوزيع ط1 تونس 1987م، ص:23-26.

2) الشيخ سيد محمد الكنتي، الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالد والولد، تحقيق عابدين بن حم الأمين، المعهد الموريتاني للبحث العلمي ج2/ 34-37.

3) ابن اباه، الشعر والشعراء، ص:27.

4) المصدر نفسه، ص: 27.

5) المصدر نفسه، ص: 27-28.

6) المصدر نفسه، ص:28-29، وانظر بلاد شنقيط المنارة والوطن، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس 1987م، ص:212-217، ومقالي الذي في الشعب الموريتانية بتاريخ 15 مايو 1985م و22 مايو 1985م.

7) عبد الودود بن عبد الله: "الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين 17-18م، حوليات كلية الآداب - جامعة نواكشوط، العدد2/1990م، وانظر بحث حماه الله بن السالم بعنوان "التواصل الثقافي والفكري بين موريتانيا والمشرق العربي" (مركون)، رسالة ماجستير [القاهرة 1995].

8) عبد الودود بن عبد الله، (المقال السابق).

9) د. احمد بن الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري - مساهمة في وصف الأساليب ط1، جمعية الدعوة الإسلامية، ص:107.

10) المصدر نفسه، ص: 108-110.

11) المصدر نفسه، ص:110.

12) المصدر نفسه، ص: 110-111.

13) انظر بلاد شنقيط، ص:502 وما بعدها، وانظر معجم المؤلفين لابن حمادون وهيموفسكي (مركون).

14) المصدر نفسه، ص:239.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

15) انظر دليل المؤلفين الشناقطة، المختار بن حامدون وهيمولسكي (1966/65م)، وما كتبه النحوي في بلاد شنقيط (انظر، ص:239 وما بعدها).
16) بلاد شنقيط، ص:239-243، وانظر دليل المؤلفين الشناقطة لابن حامدون وهيمولسكي (1966/65م).
17) بلاد شنقيط، ص:500-534، وانظر الملحق الرابع من الكتاب نفسه، ص:535-624.
18) د. احمد بن الحسن، الشعر الشنقيطي، ص:112.
19) نقلا عن الخليل النحوي في بلاد شنقيط، ص:203.
20) د. الصادق الغرياني، تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، مجمع الفاتح للجامعات 1989م، ص:62، وانظر بلاد شنقيط، ص:203.
21) د. احمد بن الحسن، الشعر الشنقيطي، ص:117و120.
22) محي الدين صبحي: "المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم الإنسانية"، الوحدة العدد28 يناير 1987م، ص:241.
23) انظر المصدر والمقال نفسيهما، ص:242.
24) عبد النبي اصطيف: "بين الغريبات والنقد الأدبي"، الفكر العربي، العدد55 فبراير 1989م، ص:86.
25) محمد مولود بن احمد فال، إثارة الأفكار والأبصار بشواهد النحو من الأخبار والآثار، تحقيق عبد الله بن خيار، مطبعة النجاح الجديدة بالمغرب، ص:31.
26) المختار بن بونه، المقدمة في النحو (مخطوط بحوزتي)، وانظر طرة ابن بونه على ألفية ابن مالك (مخطوط بحوزتي)، وانظر سعيد الأفغاني، في اصول النحو، ص:72-73، ود. محمد الحلواني، اصول النحو العربي، ص:59.
27) مخطوط عبد الله السالم بن المعلي، نقلا عن احمد بن الحسن في الشعر الشنقيطي، ص:120.
28) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب لمعرفة الأديب (معجم الأدباء)، جـ12/103 دار المأمون بمصر 1355هـ.
29) د. محمد عبد الحي: "المقاربة النقدية في موريتانيا"، حوليات كلية الآداب -جامعة نواكشوط، العدد الرابع 1994م، ص:33.
30) مطاع صفدي: "السلف، الخلف": الفكر العربي المعاصر، العدد47، وانظر احمد الحليوي "الحداثة بين الاتباع والإبداع" الفكر العربي المعاصر، العدد72-73 فبراير 1990م، ص: 126.
31) هانزروبرت جوس: " علم التاويل الأدبي -حدوده ومهماته-"، العرب والفكر العالمي، العدد3 صيف 1988م، ص:55-56.
32- د. محمد عبد الحي (المقال السابق)، حوليات كلية الاداب - بجامعة نواكشوط العدد 1994/4م.
33) انظر المصدر والمقال نفسيهما.
34) المصدر والمقال نفسيهما.
35) المصدر والمقال نفسيهما.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

36) علي حرب، لعبة المعنى ط1، المركز الثقافي - بيروت، ص:46-47.
37) المصدر نفسه، ص:49-50.
38) د. محمد عابد الجابري، نقد العقل العربي ج3: (العقل السياسي العربي - محدداته ومركز دراسات الوحدة العربية 1992م، ص:8.
39) إبراهيم محمود "الفكر - أزمة فكر أم فكر أزمة" -الفكر العربي، العدد68 يوليو 1991م، ص:41.
40) عبد الخالق عبد الله: "التبعية والتبعية الثقافية - مناقشة نظرية" المستقبل العربي، العدد 83 يناير 1986م، ص:21-22.
41) محمد شيا: «الدور الثقافي المطلوب للجامعة الوطنية» - الفكر العربي، العدد20 يناير 1981م، ص:159-161.
42) علي حرب، لعبة المعنى، ص: 159-161.
43) د. برهان غليون، مجتمع النخبة، دار الفرابي للنشر ط2 تونس 1989م، ص:197.
44) المصدر نفسه، ص:196.
45) حسن الشريف "دريس العلوم التطبيقية في ضوء متغيرات سوق العمل"، العدد:224 نوفمبر 10/1997م، ص:69-70، وانظر متاي نوجان، وباهر: "الإبداع والابتكار في العلوم الاجتماعية- الهلشية الخلاقة" أو هام المزالقة بين العلوم والإيديولوجيا" - الفكر العربي، العدد55 يناير 1989م، ص:147.
46) حسن الشريف: (المقال والمصدر السابق)، وانظر د. أحمد يوسف أحمد وفريق من: "حال الأمة العربية خلال العام 1996م"، المستقبل العربي، العدد219 مايو 1997م، ص:111.
47) انظر د. أحمد يوسف أحمد وزملاؤه: (المقال والمصدر نفسه)، ص:112، وانظر هاشم صالح: "رد هاشم صالح على النقد"، الوحدة، العدد105 مارس 1994م، ص:298 وما بعدها.
48) أحمد يوسف: "حال الأمة العربية خلال العام 1996م - المقال والمصدر السابق، ص:212، وانظر د.حسن حنفي "المشروع الحضاري الجديد"، الوحدة العدد105 مارس 1994م، ص:24-25.
49) انظر متاي نوجان، وباهر، "الإبداع والابتكار في العلوم الاجتماعية" - المقال والمصدر السابق، ص:24.
50) للمزيد عن هذا الموضوع يانظر موسى اللبهان، وزيدون أبوحسان: "البحث العلمي بين الضرورة الإنسانية والحصانة القومية"، المستقبل العربي، العدد 212 أكتوبر 1996م، ص:105-107. وينظر عبد الرزاق بني هاني، وخليل حماد: "المعوقات الاقتصادية والإدارية والاجتماعية للبحث العلمي" المستقبل العربي، العدد212 أكتوبر 1996م، ص:111.
51) هاشم صالح " رد. هاشم صالح على النقد" الوحدة، العدد105، مارس 1994م.
52) عبدالرزاق بني هاني، وخليل حماد: "المعوقات الاقتصادية والإدارية والاجتماعية البحث العلمي" المستقبل العربي، العدد212 أكتوبر 1996م، ص:111.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner